الفصل الثانى

العقل الإنسانى ودوره فى التقدم الحضارى

- العقل الإنسانى
- التفكير النقدى والتطور الحضارى
- الكم والكيف فى ميزان العقل والدين
- الحرية والضوابط الأخلاقية
- خواطر حول الجهود العلمية الإسلامية بين الماضى والحاضر
- فلسفة المقاومة
- قيمة الوقت فى حياتنا

obeikandl.com

obeikandl.com

العقل الإنسانى

لقد خلق الله الإنسان وخلق معه ومن أجله بقية الكائنات مسخرات له لإعمار الكون وصنع الحضارة فيه ، ولكن القرآن الكريم قد أشار فى الوقت نفسه إلى حقيقة مهمة تتمثل فى أن الله قد خلق الإنسان ضعيفًا بالقياس إلى معظم الكائنات . فكيف أمكن له أن يصبح سيدًا فى الأرض ومسيطرًا على غيره من الكائنات ؟ أليست هذه مفارقة غريبة ؟ .

إن الأمر هنا فى الحقيقة ليس لغزًا محيرًا ولا سرًا مغلقًا ولكنه يحتاج فقط إلى شئ من التوضيح للكشف عن مواطن الضعف ومواطن القوة لدى الإنسان للتعرف على الإمكانات التى أهلته وحده من بين كل الكائنات لتولى دور القيادة فى هذا العالم .

ولنبدأ أولاً بشرح نقاط الضعف لدى الإنسان مقارنة بغيره من الحيوانات . إن مثل هذه المقارنة ستكشف لنا من غير شك مدى ضعف الإنسان تأكيدًا للآية الكريمة : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1] . إننا عندما نقارن الإنسان بكثير من الحيوانات نجد أنها تتفوق عليه فى كثير من الصفات والميزات . فطفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بقية الحيوانات ، وهو فى حاجة إلى من يرعى شئونه لسنوات حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ، فى حين أن هناك حيوانات تستطيع أن تستقل بنفسها بعد ساعات من الولادة .

وفضلاً عن ذلك فإن القدرات البدنية للإنسان محدودة بصفة عامة بالقياس إلى الكثير من الحيوانات التى زودها الله بقدرات حسية على السمع والبصر والشم

---

(١) سورة النساء : ٢٨ .

تفوق ما لدى الإنسان بمراحل ، كما أن هناك حيوانات تستطيع الدفاع عن نفسها بما لديها من مخالب وأنياب ولا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليها فى مواجهة مباشرة . ومن الميزات التى اختص الله بها الحيوانات قدرتها على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد ، فى حين أن الإنسان إذا ترك عاريًا تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت لا محالة .فالحيوانات إذن - والحال كذلك - تتفوق على الإنسان فى معركة الحياة . ولو اقتصر الأمر على هذا القصور الحاد فى قدرات الإنسان مقارنًا بالحيوانات لكان قد انقرض منذ زمن طويل . أما الحيوانات فإنها استطاعت أن تحمى نفسها وتحافظ على نوعها منذ بدء الخليقة .

وعلى الرغم من هذا القصور الواضح فى قدرات الإنسان فإنه قد استطاع أن يتغلب على كل الكائنات الأخرى ويخضعها لسيطرته ، واستطاع أن يغير وجه الحياة على الأرض ، وأن يصنع حضارات متتالية على مدى التاريخ ، وأن يحدث ثورات هائلة فى عالم الصناعات والاتصالات والمعلومات والتكنولوجيا ، ولم يكتف بأن يكون مجال نشاطه مقتصرًا على الكوكب الأرضى ، بل راح يبحث ويقتحم عالم الفضاء .

فكيف استطاع الإنسان أن يفعل ذلك كله ويتغلب على كل الصعاب حتى وصل إليه ؟ . إنه إذا كانت جوانب ضعفه متمثلة فى أمور جسمية فإن جوانب قوته تتمثل فى أمر واحد لا يتوافر لأى كائن آخر وهو العقل الذى هو أجلُّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان . والعقل هو أثر من آثار النفحة الروحية الإلهية فى الإنسان والتى من أجلها استحق التكريم الإلهى والتفضيل على غيره من الكائنات . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى خطاب موجه إلى الملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

(١) سورة الحجر : ٢٩ .

إن جوهر الإنسان إذن هو العقل الذى يميز به الخير من الشر والنافع من الضار والذى به يهتدى إلى خالق الكون ويدرك أسرار الخلق ، وجلال الخالق ، ويتعرف على سنن الله فى الكون ، ويرشد إلى كل وجوه الخير ، ويصل إلى شتى المعارف والعلوم . ومن هنا وصفه حجة الإسلام الغزالى بأنه « أنموذج من نور الله » كما وصفه الجاحظ بأنه « وكيل الله عند الإنسان » .

ومن أجل ذلك فإن عدم استخدام العقل يعد تنازلاً من الإنسان عن إنسانيته ، ويعد فى الوقت نفسه من أكبر الذنوب والخطايا التى يرتكبها الإنسان فى حق نفسه وفى حق الله والتى تؤدى به إلى موارد التهلكة ، كما يتضح ذلك من القرآن الكريم .

ومن هنا أكد الإسلام تأكيدًا صريحًا على ضرورة استخدام العقل وتحكيمه فى كل الأمور . وقد نعى الإسلام على من يقلدون غيرهم تقليدًا أعمى دون تفكير ، أى دون استخدام لعقولهم ، وأدان النبى ﷺ التقليد بشدة فى قوله : « **لا يكن أحدكم إمعة** »[1] أى مقلدًا للآخرين تقليدًا أعمى .

ودعوة الإسلام لاستخدام العقل لا تقتصر على الأمور الدنيوية الحياتية . فهذا أمر مفروغ منه ، وقد أشار النبى إلى ذلك حين قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[2] . فالأمور الدنيوية تعتمد على البحث والدراسة والعلم بأوسع معانيه . ومن أجل ذلك لا يضع الإسلام سدودًا ولا قيودًا على مسيرة البحث العلمى .

لقد امتدت سماحة الإسلام إلى الدعوة إلى استخدام العقل فى أمور الدين ، لأن الدين نفسه لا يفهم إلا عن طريق العقل ، لاستنباط الأحكام الشرعية . وقد كان ذلك واضحًا فى إجابة معاذ بن جبل على سؤال النبى له : بماذا تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فكانت إجابته : بكتاب الله ثم بسنة رسول الله . فإذا لم يجد فيهما اجتهد برأيه أى استخدم عقله وتفكيره فى استنباط الحكم[3] .

---

(١) رواه الترمذى فى سننه ، باب البر والصلة .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

(٣) رواه أبو داود فى سننه .

ومن سماحة الإسلام أيضًا وتشجيعه للاجتهاد أنه جعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجرًا واحدًا وللذى يصيب أجرين . وعلى أساس من الاجتهاد قامت مدارس الفقه الإسلامى المعروفة ، وازدهرت علوم الدين والدنيا على السواء .

ونظرًا لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى ضرورة التجديد المستمر فى الأمور الدينية فى قوله « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** »[1] ، فإن الاجتهاد كان الآلية التى قررها الإسلام للتجديد المستمر لمواكبة متطلبات الحياة وتطورات كل عصر . فقد كان الإسلام حريصًا كل الحرص على ألا تتجمد حياة المسلمين لأن ذلك مخالف لطبيعة الحياة وسنة الكون ، فالتجديد قانون الوجود ، والمقابل للتجديد هو الجمود . والجمود موات . والإسلام جاء دينًا للحياة بجميع أبعادها . فالقعود به عن مواكبة مستجدات الحياة يعد ضد طبيعته ويمثل جهلاً فاضحًا بتعاليمه ومقاصده .

* * *

(١) رواه أبو داود فى سننه ، باب الملاحم .

obeikandl.com

التفكير النقدى والتطور الحضارى[1]

يأتى مفهوم النقد فى المعاجم العربية بصفة أساسية فى مجال التعاملات المالية . فالنقد يعنى ما هو خلاف النسيئة (أى البيع بأجل) ويقال انتقد الدراهم بمعنى قبضها . ولكن هناك معنى آخر - ورد أيضًا فى هذه المعاجم - أقرب إلى ما نقصده فى هذا المقال بالتفكير النقدى . إذ يقال : نقد الدراهم وانتقدها ، أى أخرج منها الزيف، وناقده أى ناقشه فى الأمر .

ويمكن القول بصفة عامة بأن النقد يعنى امتحان شئ ما من جهة قيمته ، وهذا يعنى أن النقد ليس مجرد بيان العيوب وكشف القصور - كما هو شائع لدى عامة الناس - وإنما هو أيضًا إبراز الإيجابيات ، وعندئذ يمكن أن يكون النقد موضوعيًا ونزيهًا وهادفًا .

ويمكن القول أيضًا بناء على ذلك كله بأن التفكير النقدى يعنى عدم القبول بشئ إلا بعد اختباره والتأكد من صحته . وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[2] أى تثبتوا من صحة النبأ . وهذا أمر ينسحب على كل جوانب حياتنا من الناحيتين النظرية والعملية .

والمقابل للتفكير النقدى هو التقليد والتسليم ، الأمر الذى يعنى تعطيل العقل وإلغاء التفكير ، فالفرق بين الموقفين إذن كالفرق بين النقيضين ، فالأول إيجابى والثانى سلبى ، والأول يؤكد الشخصية الإنسانية والثانى يلغيها ويمحو معالمها .

---

(١) نشر بصحيفة الأهرام فى ١٣/ ٩/ ٢٠٠٧ .

(٢) سورة الحجرات : ٦ .

وإذا كان الله قد خلق الناس مختلفين، على الرغم من اتفاقهم فى الجوهر ، فإنه قد أراد أن يكون لكل فرد شخصيته المستقلة التى تميزه عن غيره . وقد أكد لنا الخالق ذلك بما نشاهده ونعلمه من عدم وجود فردين فى هذا العالم يتفقان فى بصمة إبهامهما، الأمر الذى يرمز إلى استقلالية كل فرد . والمطلوب هو أن ننمى هذه الاستقلالية لا أن نعمل على إلغائها ، وذلك لن يكون إلا بتشجيع ممارسة التفكير النقدى .

والمفروض أن مصطلح التفكير نفسه يتضمن أو ينبغى أن يتضمن مفهوم النقد، فالذى يمارس التفكير هو إنسان يستخدم عقله ، وهذا يعنى أنه إنسان إيجابى، والنقد هو تفاعل مع الفكر الآخر . وممارسة التفكير النقدى من شأنها أن تجعل للحياة معنى لأنها تثرى فكر المجتمع وتدفع به قدمًا إلى الأمام ، وتحافظ فى الوقت نفسه على قيمه وهويته الحضارية .

ولا يخفى على أحد ما يمارسه الإعلام الدولى الموجه فى عالمنا المعاصر من ضغوط رهيبة على عقول الناس فى كل مكان بهدف نشر مفاهيم وقيم اجتماعية وأخلاقية وثقافية معينة فى العالم النامى على وجه الخصوص حتى يسهل توجيهه إلى الأهداف التى تريد القوى العظمى تحقيقها .

وفى كثير من الأحيان تتعارض هذه المفاهيم والقيم مع الخصوصيات الحضارية للمجتمعات النامية بصفة عامة والمجتمعات الإسلامية بصفة خاصة ، الأمر الذى يهدد الهوية الحضارية لهذه المجتمعات . وحتى يمكن التمييز بوضوح بين ما هو ملائم لنا وما هو غير ملائم فإن ذلك يتطلب عقلية نقدية لا تأخذ أى شئ على علاته، وإنما تبحث وتدرس وتقارن وتختار ما يلائمها وترفض ما لا يتفق مع خصوصياتها الحضارية والدينية .

ولا شك فى أن العقلية النقدية ليست منغلقة على نفسها ،وإنما هى عقلية متفتحة ، لا ترفض شيئًا لمجرد الرفض أو لأنه آت من جانب جهات لا تريد لنا الخير. فالرفض أو القبول لديها ينبنى على أسس ومبادئ ، ولا يأتى عشوائيًا ، بل

يكون بعد الدراسة والبحث والتقييم الموضوعى . وقد كان الفيلسوف العظيم ابن رشد خير نموذج لهذه العقلية النقدية المتفتحة . فقد قرر أن الاطلاع على ما لدى الآخرين يعد واجبًا شرعيًا ، ثم أضاف قائلاً : « ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » .

ومن هنا تأتى ضرورة تعليم أبنائنا وبناتنا التفكير النقدى حتى يكونوا قادرين على التمييز بين الخير والشر والصواب والخطأ ، وبذلك نوفر لهم الحماية من الانسياق وراء دعاوى التطرف والجمود والانغلاق أو أى دعاوى أخرى هدامة ترمى إلى محو هويتهم الحضارية . فواقع الحال يبين لنا أن طريقة التعليم التقليدية التى تعتمد على مجرد الحفظ والتلقين لا تنتج لنا إلا أناسًا من أصحاب الشخصيات الباهتة التى لا لون لها ولا طعم ، أى تنتج لنا شخصيات متواكلة واستسلامية .

أما التفكير النقدى فإنه ينتج شخصيات فاعلة لها رأى ولها فكر ولها نظرة فاحصة فى الأمور . وهذا يعنى إثراء المجتمع بأعضاء عاملين يدفعون بعجلة الحياة إلى الأمام وينهضون بمجتمعهم على جميع المستويات . والتوصل إلى هذا المستوى يتطلب بطبيعة الحال تغييرًا فى المناهج الدراسية وفى أساليب التدريس .

ولعل من الأمور المبشرة بالخير تلك التجربة التى تتبناها حاليًا وزارة التربية والتعليم فى مدارسها وهى تجربة « التعلم النشط » والتى أعطت نتائج مبشرة بالأمل فى أوساط الأطفال ، وهى تجربة رائدة من غير شك ، ولكنها فى حاجة إلى الدعم والمساندة من جهات عديدة فى المجتمع وذلك عن طريق وسائل الإعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية ، وعن طريق مختلف الفنون وجميع مؤسسات المجتمع مدنية كانت أم حكومة .

ولا شك فى أن الدعاة فى المساجد لهم أيضًا دور بالغ الأهمية فى توعية المواطنين بقيمة العقل وقيمة التفكير . فمن المعروف أن الإسلام قد اهتم اهتمامًا بالغًا بذلك ،

الأمر الذى حدا بالمرحوم الأستاذ عباس العقاد إلى تأليف كتابه القيم «التفكير فريضة إسلامية».

وهناك أمثلة رائدة فى استخدام التفكير النقدى فى تاريخ العلوم الإسلامية، فعندما وجد العلماء المسلمون فى وقت مبكر من التاريخ الإسلامى انتشار مئات الآلاف من الأحاديث المنسوبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام انبرى عدد منهم للقيام بمهمة نقدية بالغة الأهمية لتمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الضعيفة أو الكاذبة.

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال واحد وهو نموذج الإمام البخارى الذى كرس حياته العلمية كلها لهذه المهمة. فبعد أن جمع أكثر من خمسمائة ألف حديث تدور على ألسنة الناس، وضع قواعد صارمة وشروطًا محكمة للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح من الأحاديث، وقام بتطبيقها على الأحاديث المروية من حيث السند أو المتن. وجاءت حصيلة هذا العمل النقدى فى كتابه« صحيح البخارى » فى حوالى تسعة آلاف حديث فقط من بين مئات الآلاف المشار إليها. فإذا حذفنا المكرر والموقوف على الصحابة والمقطوع «المنسوب للتابعى» من الأحاديث الواردة فى هذا الكتاب فسنجد أن الذى صح لدى هذا الإمام الكبير حوالى ألفين وستمائة حديث فقط.

ومن خلال هذا المثال وغيره من أمثلة أخرى فى مجالات العلوم المختلفة يتضح لنا أن التفكير النقدى كان وراء تطور العلوم والفنون فى الحضارة الإسلامية. والشئ نفسه نجده لدى الأمم الأخرى. فقد كان التفكير النقدى وراء انتشار وازدهار التفكير الفلسفى والعلمى فى مختلف الحضارات، وكان وراء كل إنجاز حققته الأمم والشعوب فى مجالات الابتكار والإبداع على جميع المستويات، ويمكن القول بصفة عامة بأن التطوير والتجديد فى أى مجال من مجالات حياتنا بأتى نتيجة طبيعية لممارسة التفكير النقدى.

وهناك أناس لا يطيقون النقد ، بل يرفضونه تمامًا ويستمرئون التقليد والاتباع ، ولا يريدون لأحد أن يوقظهم من غفلتهم أو غفوتهم . فهم سعداء بها . وهذه النوعية من الناس لا يمكن الاعتماد عليها فى النهوض بالمجتمع .

ومجالات النقد كثيرة ومتنوعة وتشمل جميع مجالات الحياة . فقد يكون النقد موجهًا إلى أوضاع المجتمع أو إلى أى مجال من المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية أو غيرها من مجالات ملتصقة تمام الالتصاق بحياة الناس وحاجاتهم اليومية أو العامة . وقد يكون النقد موجهًا إلى الأعمال العلمية أو الفنية أو غيرها . وكل ذلك مطلوب بطبيعة الحال لإظهار الحقائق أمام الناس . وهذه الممارسة للنقد على كل هذه المستويات تعنى حيوية المجتمع وتفاعله مع الأحداث والأفكار .

وهناك لون آخر من ألوان النقد لا يقل فى أهميته عن الألوان المشار إليها ، بل ربما يمكن القول بأنه يمهد لها حتى يمكن أن تسير فى الطريق الصحيح ، ونعنى بذلك النقد الذاتى الذى يعد الخطوة الأولى على الطريق الصحيح . فهناك البعض من الناس لديه هواية النقد لكل شئ . وفى غمرة ذلك كله ينسى أن يوجه النقد لنفسه أولاً . ولو فعل ذلك فسيكون أمرًا إيجابيًا يساعده على تصحيح مسار حياته وتصحيح أفكاره وتوجهاته ، ويصبح بالتالى قادرًا على الإسهام بشكل إيجابى فى تطوير المجتمع .

وأى أمة تريد أن تتقدم وترتقى فى سلم التحضر لابد لها من تشجيع التفكير النقدى على جميع المستويات فإن ذلك من شأنه أن يحرك المياه الراكدة ويوقظ العقول التى تم تخديرها بشكل أو بآخر فأصبحت عاجزة عن التفكير بصفة عامة والتفكير النقدى بصفة خاصة . وبممارسة التفكير النقدى نستطيع أن نغير ثقافة المجتمع ونبعث فيه الحيوية والطموح والانطلاق إلى آفاق التقدم . وهذا ما تحتاجه أمتنا وما تمليه علينا مسئوليتنا .

* * *

obeikandl.com

٣

الكم والكيف فى ميزان العقل والدين[١]

سأل أحد الباحثين زميله الذى يستعد للحصول على درجة الدكتوراة : كم عدد صفحات الرسالة ؟ فأجاب الباحث : أكثر من ثمانمائة صفحة . فقال السائل : هذا شئ عظيم . وبذلك حكم على كَمّ الرسالة دون أن يدرى ما إذا كانت تشتمل على شئ جديد أم لا ؟ وفى موقف آخر كانت إجابة الباحث : إن الرسالة تشتمل على مائتين وخمسين صفحة . وكان رد فعل السائل مختلفًا تمامًا ، ونظر إلى الباحث بأسى واستخفاف فى الوقت نفسه . فقلة عدد صفحات الرسالة يجعلها فى نظره خفيفة الوزن والقيمة .

وهذه النظرة الكمية للأعمال العلمية والأبحاث الجامعية إن دلت على شئ فإنما تدل على السطحية فى التفكير والضحالة فى مستوى الحكم على الأشياء . وهناك كثير من الباحثين - وبخاصة فى الكليات النظرية - لا يهتمون كثيرًا بالتجديد والإبداع والابتكار فى بحوثهم ورسائلهم قدر اهتمامهم بالكم ، حيث يعتمد هؤلاء على حشو رسائلهم العلمية بنقول لا ضرورة لها من هنا وهناك . وبدلاً من التركيز على جوهر الموضوع ومحاولة الاجتهاد بعرض وجهات نظر مبتكرة ، نجد الباحث فى كثير من الأحيان يركز اهتمامه على تضخيم بحثه كما لو أن تقييم العمل العلمى ينبنى على ما تزنه الرسالة بالكيلو جرامات وليس بالمعايير العلمية .

والأمر المؤسف أن ثقافة الكم قد انتشرت فى مجتمعنا بشكل كبير على جميع المستويات . فالجامعة التى يصل فيها أعداد الطلاب إلى مئات الآلاف تعد جامعة ذات قيمة ، أما الجامعة التى تضم مئات فقط من الطلاب فقيمتها تكون أقل فى نظر هؤلاء الذين ينظرون إلى الأمور من سطحها ومظهرها وليس من عمقها ومخبرها .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢/ ٦/ ٢٠٠٧ .

وقد طغى هذا التفكير الكمى على عاداتنا الاجتماعية بشكل لا تخطئه العين ، فحين يفكر شاب فى الزواج - على سبيل المثال - فإن العادات الاجتماعية التى ترسخت فى المجتمع تفرض نفسها فى اختيار الأثاث وعدد الغرف التى لابد أن تملأ بالأثاث حتى ولو كان المسكن صغيرًا . فالمظهر الاجتماعى له الأولوية بصرف النظر عما إذا كان الذين سيسكنون فى هذا المكان سيستطيعون أن يتحركوا فى المسكن ويلتقطوا أنفاسهم فيه أم لا ، وعما إذا كانوا سيتمكنون - هم وأسرهم - من تسديد ديون هذا البذخ أم لا .

والشئ نفسه ينطبق على الحرص على كثرة الإنجاب دون مراعاة لإمكانيات الأسرة فى الإنفاق والمسكن والتربية وغير ذلك من متطلبات ، فكثرة النسل تعد فى نظر البعض « عزوة »لرب الأسرة وقوة للوطن بصرف النظر عما تسببه الكثرة التى لا ضرورة لها من مشكلات جمة على جميع المستويات .

ولا تخلو عاداتنا الاجتماعية فى الأكل والشرب من سلبيات كبيرة . فحين يدعو البعض عددًا من أصدقائه أو أقربائه أو معارفه إلى الغداء أو العشاء يحرص على كم الطعام الذى يقدم على المائدة . فإذا كان عدد المدعوين خمسة أفراد ، فالطعام الذى يقدم بألوانه المختلفة يكفى لأكثر من ضعف هذا العدد . وفى ذلك إهدار لا مبرر له للمال والجهد ، وإسراف مذموم فى العقل وفى الدين على السواء ، ولكن المظهر الاجتماعى فى ذلك كله هو الأهم ، والافتخار والمباهاة والمظهرية هى الأمور الحاكمة . ولا أهمية لما وراء ذلك .

أما فى شهر رمضان فحدّث ولا حرج . فعلى الرغم من أنه شهر الصيام والروحانيات والزهد فإن حياتنا تتحول فيه بفعل ثقافة الكم إلى مضاعفة كميات الطعام وألوانه بشكل لا نظير له فى أى شهر من شهور السنة ، وذلك فى تحد صارخ لجوهر وروح هذا الشهر . ويستهلك المجتمع فى هذا الشهر أضعاف ما يستهلكه فى أى شهر آخر من مختلف أنواع السلع ، وتضطر الحكومة للتجاوب مع هذه الرغبة الجماهيرية .

ويلحظ المرء بشكل واضح غلبة شهوة الشراء على مواطنينا ، وعلى العاملين منهم فى دول الخليج بصفة خاصة . ولا ينسى الحجاج والمعتمرون فى رحلتهم الدينية - التى يتجردون فيها من كل الماديات - أن يحملوا معهم عند عودتهم أحمالاً ثقيلة من الأشياء التى يقبلون على شرائها إقبالاً منقطع النظير بحجة أنها من الأماكن المقدسة على الرغم من أنها مصنوعة فى الصين وتايوان وكوريا ولا صة لها بالأماكن المقدسة ، وذلك فضلاً عن وجود مثيل لها فى مصر ، أفلا يدل ذلك على أن مجتمعنا قد تحول مبكرًا إلى مجتمع استهلاكى قبل أن يعبر الهوة التى تفصل بينه وبين مجتمع الوفرة ؟ .

إن انتشار ثقافة الكم يدل فى حقيقة الأمر على ازدياد فقر الفكر فى المجتمع وغياب العقل . وقد نبه الشيخ محمد عبده إلى أن الفقر الحقيقى ليس فى قلة الموارد ، وإنما فى قلة الراشدين المتمسكين بالعقل ومقرراته . وكلما ازدادت أعداد الراشدين يعتدل الميزان ، وكلما قل عددهم يختل الميزان ويميل إلى كفة التخلف والتأخر . ولا شك فى أن الذى يساعد على استمرار هذا الخلل هو تلك العادات والتقاليد الاجتماعية العقيمة التى تتحكم فى المجتمع وتستعبد أفراده . وقد آن الأوان للتخلص منها لأنها تعوق حركته وتشل فاعليته وتعطل تقدمه .

وإذا أردنا أن نتخلص من كل هذه السلبيات فعلينا أن نمارس النقد الذاتى ونراجع أنفسنا ونعدل من أخلاقنا وسلوكياتنا ونتخلى عن التقاليد البالية التى لم يعد لها مكان فى عالم اليوم . وإذا نظرنا إلى العالم المتقدم من حولنا وبحثنا عن أسباب تقدمه فسنجد أنه قد تخلى عن التقاليد البالية وركز على الجوهر دون الشكل واهتم بالكيف دون الكم ، وبذلك حطم العوائق وأعطى للعقل الراشد دوره الكامل فى الحياة ، وبذلك أصبحت حركته سريعة تواكب كل المتغيرات ، بل تصنعها وتحدد لها مساراتها .

وعلى الرغم من أن الدين - الذى لا يزال له فى مجتمعاتنا عمقه العميق فى النفوس - يرفض تمامًا النظرة الكمية للأمور ، ولا يحفل كثيرًا بالشكليات ولا يهتم

بالمظاهر الخادعة ، فإن العادات الاجتماعية والقيم السلبية - التى أشرنا إلى بعضها - قد استطاعت أن تفرض نفسها وترسخ أقدامها فى المجتمع وفى حياة الناس ، وتزاحم قيم الدين ، بل أكاد أقول : تحل محلها . وهذا لون آخر من ألوان الانفصام فى حياة الناس بين جوهر الدين والسلوك العملى المخالف تمامًا للقيم الدينية .

وإذا أردنا أن نذكّر - مجرد تذكير - بنظرة الإسلام إلى قضية الكم والكيف فسيتضح لنا الفارق الكبير بين القيم الدينية وعاداتنا وقيمنا الاجتماعية . فالواقع العملى فى حياة المسلمين فى مراحل الإسلام الأولى يبين لنا أن المسلمين قد انتصروا على المشركين فى موقعة بدر رغم قلة عددهم . فالكيف هنا وليس الكم كان سبب النصر ، ولكن المسلمين فى المقابل قد انهزموا فى موقعة حنين رغم كثرة عددهم وتفوقهم فى ذلك على أعدائهم لأنهم اعتمدوا على الكم واعتقدوا أنه سيكون سبيلهم إلى النصر ، وخاب ظنهم . وقد نهى القرآن الكريم - على سبيل المثال - عن الإسراف والتبذير فى الأكل والشرب بقوله : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾[1] ووصف المبذرين بأنهم : ﴿ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[2] .

والإسلام فى دعوته إلى الاعتدال والوسطية يلفت نظرنا إلى أن الكثرة ليست هى المعيار الصحيح للحكم على الأمور . ومن الأحاديث النبوية المشهورة فى هذا الصدد قصة ثلاثة من الصحابة ذهبوا إلى بيت رسول الله يسألون عن عبادته ليقتدوا به . فلما حكى لهم ما يفعله الرسول فى عبادته وجدوا أنها تعد قليلة جدًا بالنسبة لما يفعله كل منهم . وذكر أحدهم أنه يصلى طوال الليل ولا ينام ، وقال آخر إنه يصوم كل الأيام ولا يفطر ، وقال الثالث إنه يعتزل النساء ولا يتزوج . وهكذا وقع فى ظن كل منهم أن معيار التقوى يتمثل فى كثرة الصلاة والصيام والعزوف عن الدنيا على النحو الذى شرحه كل منهم . وعندما سمع النبى عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الأعراف : ٣١ .

(٢) سورة الإسراء : ٢٧ .

كلامهم قال لهم : « **والله إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له ، ولكنى أصلى وأرقد وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وهذه سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى** »[1] ، فلا إفراط ولا تفريط . فكلاهما مذموم فى العقل وفى الدين .

فالإسلام إذن لا يعول على الكثرة أو الكم ولا يعتمد أيًا منهما معيارًا صحيحًا للحكم على الأعمال أو العبادات . وإذا كان المسلمون يشكلون اليوم خُمس سكان العالم فإن هذا العدد الكبير لا يقابله - للأسف الشديد - قوة مادية أو علمية أو حضارية أو حتى روحية فى دنيا المسلمين .

وقد تنبأ النبى عليه الصلاة والسلام بالحال الذى وصل إليه المسلمون فى عالم اليوم من التدنى فى المستوى الحضارى على الرغم من كثرة عددهم الذى يربو على مليار ونصف المليار من البشر ، وانعدام أى دور لهم فى العالم يتناسب مع هذه الكثرة العددية . وفى ذلك يقول : « **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ، فأنتم حينئذ كثير ولكن غثاء كغثاء السيل** »[2] .

فالنبى ﷺ هنا لا يحفل بالكم أو بكثرة العدد الذى يصفه بغثاء السيل ، فالمهم هو ما يتمتع به أفراد المجتمع من فاعلية ورشد وتركيز على جوهر الأمور والارتفاع فوق الهامشيات والشكليات والمظهريات . وقبل كل ذلك وبعده تمكين العقل الإنسانى من أداء دوره الفاعل والمؤثر فى تطوير الحياة والارتقاء بالمجتمع ، وبعبارة أخرى فى التخلى عن ثقافة الكم لصالح ثقافة الكيف .

* * *

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

(٢) رواه أبو داود فى سننه ، باب الملاحم .

obeikandl.com

٤

الحرية والضوابط الأخلاقية[1]

مفهوم الحرية من أكثر المفاهيم التى تتردد كثيرًا فى مختلف الأوساط وعلى ألسنة المتحدثين فى مختلف وسائل الإعلام وفى الأفلام والمسلسلات وفى غيرها من وسائل الاتصال . ومن الملحوظ أن مفهوم الحرية يشيع الحديث عنه بدرجة أكبر فى البلاد النامية التى تحررت حديثًا من الاستعمار ، ولا تزال تتلمس طريقها نحو الحرية على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أما البلاد المتقدمة فالملاحظ أنها لا تتحدث كثيرًا عن الحرية ، لا لأنها تفتقدها وإنما لأنها تمارسها ، وبالتالى فهى ليست فى حاجة إلى الحديث كثيرًا عنها .

وفى غابر الأزمان وحتى أعتاب العصر الحديث كانت المجتمعات البشرية تنقسم إلى أحرار وعبيد . وكانت تجارة العبيد من التجارات الرائجة حتى عهد ليس بالبعيد .وكانت تمارسها دول تتصدر الآن دول العالم فى محاولاتها فرض الحرية على الشعوب النامية على النحو الذى تمارسه فى بلادها اعتقادًا منها أن هذا هو النموذج الأمثل . ولا بأس لديها من اللجوء إلى فرض هذا النموذج بقوة السلاح ، كما هو حادث فى عالم اليوم ، وأقرب مثال على ذلك ما يحدث فى العراق ، وإن كان هذا لا ينفى بطبيعة الحال أن لهذه الدول من وراء ذلك أهدافًا أخرى غير معلنة .

والحق أن الحرية حق طبيعى لكل إنسان وليس منحة من أحد . ومن هنا كانت صيحة عمر بن الخطاب فى وجه عمرو بن العاص - الذى اعتدى ابنه على مواطن مصرى بدون وجه حق - حين قال : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟ » .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢١/ ٧/ ٢٠٠٧ .

وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة التى لا تحتاج إلى برهان فإن الواقع العملى فى تاريخ البشرية كان أمرًا مختلفًا . فقد مارست الشعوب المختلفة التفرقة العنصرية واعتادت على التقسيم الظالم بين الناس الذى جعل من البعض سادة لهم كل الحقوق ومن الآخرين عبيدًا مجردين من حقوقهم الطبيعية . وقد تورط فى ذلك فلاسفة عظام من أمثال أرسطو المعلم الأول الذى كان يعتبر الرق نظامًا طبيعيًا ، ويذهب إلى القول بأن العبيد مجرد آلات حية ضرورية للقيام بالأعمال الآلية المنافية لكرامة المواطن الحر . والسادة الأحرار فى نظره هم شعب اليونان الذى ينتمى هو إليه .

إنها قصة طويلة خاضتها البشرية عبر تاريخها الطويل حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من تحقيق أهدافها فى الحرية بدرجات متفاوتة بطبيعة الحال . والسؤال المهم فى هذا الصدد : - هل الحرية مطلقة أم نسبية ؟ وإذا لم تكن مطلقة فما هى حدودها التى تتوقف عندها ؟ وهل هناك علاقة بين الحرية والأخلاق ؟ وكيف يشعر المرء بالحرية ؟

إن مما لا شك فيه أنه لا توجد حرية مطلقة فى عالم الإنسان ، ولو كانت هناك حرية مطلقة لكل فرد يفعل ما يشاء دون أى اعتبار آخر لا نقلب العالم إلى حالة من الفوضى والعبثية . ومن هنا فإنه لا يمكن تصور الحرية بدون مسئولية . فالحيوان غير مسئول لأنه لا يعقل . أما الإنسان - الذى حباه الله بنعمة العقل - فإن حريته لا تنفصل عن المسئولية . وتلك هى السمة الفارقة التى تميز الإنسان عن الحيوان . فلا حرية إذن بدون مسئولية ، ولا مسئولية بدون عقل ، ولا عقل بدون قيم تضبط سلوك الأفراد والجماعات .

وهكذا يمكن القول بأن الحرية الواعية هى أساس المسئولية الأخلاقية . والمسئولية صفة تلازم صاحبها فى كل مراحل الفعل الإنسانى من بدايته حتى نهايته. فالإنسان من منطلق مسئوليته الأخلاقية مطالب قبل الفعل بالالتزام بفعل ما ينبغى أن يكون . ونظرًا لأنه يتمتع بالحرية فإن تصرفه حين يقدم على الفعل لا يقبل الضغط أو الإكراه .

ونتيجة لذلك قد يكون التصرف إيجابيًا محققًا للغاية الأخلاقية ، وقد يكون سلبيًا على النقيض من ذلك . ولكن الإنسان بعد الفعل - من منطلق مسئوليته الأخلاقية أيضًا كإنسان- يحتاج إلى عملية تقييم لما صدر عنه من فعل ، أى أنه مطالب بالالتفات إلى الماضى فى عملية استجواب ومحاسبة لنفسه .

والإنسان بطبيعته كائن اجتماعى ، وهو فى حاجة إلى المجتمع الإنسانى لتطوير شخصيته وتحقيق ذاته . ومن ناحية أخرى فإن عليه التزامات أدبية تجاه هذا المجتمع الإنسانى . وهذه الالتزامات ليست مجرد التزامات مفروضة عليه من قوة خارجية عنه ، وإنما هى مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى .

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أى مسئولية . فلو لم أعدل فى حق الآخرين فإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حقى . والإنسان الذى يتنكر لالتزاماته الأدبية تجاه الآخرين هو إنسان يعزل نفسه عن المشاركة الإنسانية . ونظرًا إلى أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى محتاج إلى المجتمع الإنسانى - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - فإن هذه الحالة التى يعزل فيها نفسه تعد بالنسبة له ميتة من الناحية الأدبية . ولهذا يبدو أمرًا غريبًا ، وموقفًا متناقضًا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها .

ويرجع السبب فى إمكان إنكار الالتزامات الإنسانية من جانب كثير من الناس- أو على الأقل اعتبارها التزامات خارجية بحتة مفروضة من خارج الذات - إلى أن المسئولية ، مثل كل شئ آخر يتعلق بالأخلاق ، متصلة أوثق الصلة بالحرية الإنسانية .

وهناك جبريون ينكرون الحرية ، وبذلك يرفضون تحمل مسئولية تصرفاتهم . ويضرب الفيلسوف كارل ياسبرز مثالاً يعبر به عن هذا الموقف المتناقض بقوله :

« عندما وقف المتهم يدافع عن براءته أمام المحكمة قائلاً : - إنه ولد باستعدادات أردته إلى الشر ، وإنه مادام لم يستطع أن يفعل خلاف ما فعل فلا ينبغى

أن يعتبر مسئولاً ، أجابه القاضى متهكمًا : إن عين السبب يبرر سلوك القاضى ، فإنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر غير إدانة المتهم من حيث كونه مجبرًا فى هذا بالعمل طبقًا للقوانين الموضوعة ». ونحن نشعر بالحرية شعورًا مباشرًا إذا ما وقفنا موقف الاختيار بين سلوكين ، فالإنسان يكون على وعى بحريته عندما يمارسها ، وممارسته لهذه الحرية فى علاقاته مع الآخرين تتمثل فى صور مختلفة يمكن إرجاعها إلى ثلاث صور أساسية .

أما الصورة الأولى فإنها تتمثل فى محاولة إشباع هذه الحرية بلا حدود دون مراعاة للآخرين ، انطلاقًا من أنانية مفرطة لا تعترف بحدود ولا قيود ، وذلك فى غياب تام للعقل ومقرراته . وهذه الصورة لا تليق بالإنسان ولا تتفق مع كرامته .

أما الصورة الثانية فإنها مناقضة تمامًا للصورة السابقة ، وتتمثل فى الإيثار المفرط والتضحية بالذات من أجل الآخرين ، وهنا يتنازل المرء عن حريته فى سبيل إفساح المجال للغير . وهذا السلوك - على الرغم من سلامة القصد فيه - لا يحقق للمرء ذاته ولا يكفل له ممارسة حريته على نحو سليم .

أما الصورة الثالثة فإنها مزيج من الصورتين السابقتين تجمعهما فى وحدة واحدة وترتقى بهما ، فى توازن يحقق للإنسان وجوده الإنسانى على نحو يليق بإنسانيته . وهنا يتعامل الإنسان مع الآخرين على أنه إنسان ، أى على أنه كائن حر ، وبذلك تكون العلاقة الإنسانية هى علاقة مجتمع يتكون من موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته فى سبيل قيام مجتمع إنسانى يحقق الخير الأخلاقى للجميع .

وهكذا يتضح أنه لا قيام للأخلاق بدون هذا التوافق والتنافس بين خير الإنسان وخير الغير ، أى أنه لا بد لكل فرد من أن يقيم نوعًا من التوازن بين مطلبى تحقيق الذات والتضحية بالذات ، وينبغى ألا تتعدى حريته هذا الإطار .

وإذا كانت الحرية تعد حقًا طبيعيًا لكل إنسان ، وإذا كان المجتمع الإنسانى السوى لا يستقيم إلا إذا كانت حرية الأفراد فيه حرية واعية ومسئولة ومنضبطة

بالضوابط الأخلاقية الفطرية المغروسة فى نفس كل إنسان ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه فى عالم اليوم بإلحاح هو : ما صلة ذلك كله بما يتم الترويج لـه اليـوم فى الـدول المتقدمة باسم الحرية وباسم حقوق الإنسان مـن ممارسـات شـاذة تنـاقض الطبيعـة الإنسانية ، ويراد تصديرها ، بل وفرضها على بقية دول العالم مثل الـشذوذ الجنـسى وزواج المثليين ؟ .

ويقال تبريرًا لهذه الممارسات : إن الإنسان حر فى التصرف فى جسده . ومن هنـا فإن من حقه إقامة مثل هذه العلاقـات الـشاذة التـى أصـبحت ممارسـات مـشروعة ومعترفًا بها قانونًا فى بعض الدول المتقدمة . وباسم حقوق الإنسان تلام الدول التـى لا تريد أن تعترف بهذه الحقوق المزعومة وتوصف بالتخلف والرجعية . وقـد يـصل الأمر إلى التلويح بقطع المساعدات عنها إذا لم تبد مرونة فى هذا الشأن .

إن الإنسان - الذى كرمه الله بـأن نفـخ فيـه مـن روحـه وجعلـه خليفـة لـه فى الأرض ووهبه عقلاً يميز به الخير من الشر والنـافع مـن الـضار - إذا أراد أن يظـل محتفظًا بهذا التكريم الإلهى ومتمسكًا بإنسانيته كإنسان بكل ما يعنيه ذلك من معنى ، فإنه سيظل صامدًا أمام هذه الانتكاسة التى تريد له أن يتنازل عن إنسانيته ويرتـد إلى عالم الحيوان ، بل إلى ما هو أدنى من ذلك . ولعل الداعين إلى هذه الانتكاسة فى عـالم اليـوم تنطبـق عليهـم الآيـة الكريمـة : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .

obeikandl.com

٥

خواطر حول الجهود العلمية الإسلامية بين الماضى والحاضر

تمهيد :

هناك مقولة - سبقت الإشارة إليها - تقول: «الفلسفة بنت الدين وأم العلوم». وتعتبر هذه المقولة تعبيرًا صادقًا عن مدى الصلة الوثيقة التى تربط العلوم والمعارف الإنسانية التى تمثل حلقات متصلة تلبى حاجات وتطلعات الإنسان . فكما هو فى حاجة إلى الدين فإنه أيضًا فى حاجة إلى الفلسفة وسائر العلوم . ومن هنا فإن افتعال خصومة بين هذه العناصر أمر لا مبرر له وليس فى مصلحة الإنسان ، ولا يعبر عن حقيقة جوهره .

صحيح أننا نعيش الآن عصر العلم ، عصر ثورة المعلومات والاتصالات والطفرة التكنولوجية الكبرى . ولكن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن الإنسان يمكن أن يستغنى تمامًا عن الدين وعن سائر العلوم العقلية لصالح العلوم الطبيعية .

وصحيح أيضًا أن التطورات العلمية الهائلة قد تصيب الإنسان بالغرور وتدفعه إلى الاعتقاد بأن التقدم المادى هو كل شىء ، ولكنه فى نهاية الأمر يجد نفسه مدفوعًا إلى الحنين إلى الاعتقاد وإلى البحث عن شىء يملأ فراغ نفسه ويشعره بالاطمئنان . وهذا الحنين فى حد ذاته يدل على أن هناك حاجات نفسية وجدانية وحاجات عقلية لا يجوز تجاهلها إذا أراد الإنسان لنفسه السعادة فى هذه الحياة . ويذكرنى ذلك بكتاب كنا نقرؤه ونحن طلاب فى المرحلة الثانوية بعنوان « الله يتجلى فى عصر العلم » لمجموعة من أبرز العلماء فى مختلف العلوم فى الغرب أجمعوا على أن إنجازاتهم العلمية قادتهم إلى الإيمان .

العلم والحضارة :

والمتتبع لنشأة الحضارات الإنسانية يجد أنها قامت على أساس من الدين والعلم معًا . ومن هنا اهتم الوحى القرآنى فى أول ما نزل منه بلفت الأنظار والعقول إلى مفاتيح الحضارة قبل أن يتحدث عن أى شئ آخر يتعلق بالعقيدة وأمور الآخرة . فكانت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق التى تأمر بالقراءة مرتين وتشيد بالعلم والقلم الذى هو وسيلة تدوين العلم وبالإنسان حامل هذا العلم . وكان هذا الوحى عودًا على بدء . فقبل أن يهبط الله آدم إلى الأرض علمه الأسماء كلها ، أى أعطاه مفاتيح الحضارة التى يستطيع من خلالها أن يلبى الأمر الإلهى بإعمار الأرض فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها .

ولتأكيد ذلك جعل الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقد أدرك المسلمون الأوائل كل هذه المعانى وساروا على نهجها فكانت لهم إسهاماتهم التى لا تنسى فى تقدم العلوم وازدهار الحضارة . وإذا كانت الحضارة لا تقوم إلا بالعلم ، فإن منهج العلم فريضة أيضًا ويعد جزءًا لا يتجزأ من العلم .

ومناهج العلوم تختلف باختلاف موضوعاتها من علم إلى آخر . وقد أسهم أسلافنا إسهامات جادة فى تقدم العلوم ومناهجها . وكان لابد فى هذا الصدد من تحديد الحدود بين العلوم المختلفة حتى لا تختلط الأمور . ومن هنا كان « إحصاء العلوم » للفارابى بوصفه أول محاولة جادة فى هذا الصدد استفاد منها الأوروبيون كثيرًا فى العصور الوسطى فى أوروبا حتى بداية القرن السادس عشر .

وقد تحدث القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى عن هذا الكتاب فقال : « وله كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، ولم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه »[2] .

---

(١) سورة هود: آية ٦١ .

(٢) نقلاً عن تقديم المحقق د . عثمان أمين للطبعة الثانية لكتاب إحصاء العلوم .

والعلم - كما نعرف من تراثنا - رحم بين أهله وتواصل بين الأجيال والحضارات ، وكل جيل يضيف إليه شيئًا جديدًا يمهد به السبيل لمن يجئ بعده. ولن يكتمل بناء صرح العلم طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود ، فالعلم نسبى وقابل للتطور المستمر . والكلمة الأخيرة فى العلم أو فى الفلسفة لم يقلها جيل بعينه وإلا أصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدى .

ومن أجل ذلك ستظل محاولات التجديد والتطوير والإبداع متواصلة بلا انقطاع طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود . ومهمة اللاحق وفرصته أفضل دائمًا من فرصة السابق عليه . وقد أشار إلى ذلك أبو بكر الرازى فى حديثه عن الفلسفة حيث يقول : « اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة وواظب على ذلك ، واجتهد فيه ، وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته عَلِم عِلْم من تقدمه منهم ، وحفظه ، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى ، لأنه مهر بعلم من تقدمه ، وفطن لفوائد أخرى واستفضلها ، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل » .

وما قاله أبو بكر الرازى فى هذا النص عن الفلسفة ينطبق بطبيعة الحال على سائر العلوم . فالعلم قسمة مشتركة بين بنى البشر . وهناك تفاعل مستمر بين الأجيال والحضارات ، وكل جيل يبدأ من حيث انتهى الآخرون ، وكل جيل مدين للجيل السابق عليه بما قدمه من عطاء .

ومن هنا فإنه لا يجوز لأى حضارة أن تدعى لنفسها أنها أنجزت ما أنجزت دون أن تستفيد من غيرها بشكل مباشر أو غير مباشر سواء كان هذا الإنجاز تعديلاً أو تصحيحًا لما قاله السابقون أو إضافة جديدة للبناء العلمى الذى هو ملك للبشرية كلها . فالعقل الإنسانى واحد لدى جميع البشر وهو : « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » كما يقول ديكارت .

ولا شك فى أن الحضارة الإسلامية قد استفادت من الإنجازات العلمية والفكرية السابقة عليها كما أفادت بدورها الحضارة الأوروبية الحديثة بما قدمته لها

من عطاء فى العصور الوسطى عن طريق الترجمات العديدة من خلال المعابر الحضارية فى كل من الأندلس وجزيرة صقلية . وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يوجد مبرر لمحاولة البعض على كلا الجانبين إنكار أو نفى هذا التواصل العلمى والحضارى بين الثقافات .

ويؤكد القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، أن السماء والأرض وما بينهما مجال للنظر والبحث العلمى . وختام الآية يبين لنا أن ذلك لن يكون متاحًا إلا لهؤلاء الذين يتفكرون ، أى الذين يستخدمون عقولهم فى البحث والنظر بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو العرق أو اللغة . فالمجال مفتوح لكل من لديه استعداد لاستخدام عقله وفكره فيما خلق له .

وفى ضوء هذه الآية الكريمة أود أن أطرح سؤالاً عن جدوى ما يبذل من جهود مشكورة فى مجال أسلمة العلوم لتطوير حياتنا الإسلامية . ألم يكن من الأجدى أن نختصر الطريق ونبدأ من حيث انتهى الآخرون حتى نستطيع أن نلحق بركب التطور العلمى ؟ لقد انطلقت هذه الدعوة منذ حوالى ربع قرن من الزمان ، فما الذى قدمته للارتقاء بالعلم فى مجالاته المختلفة فى العالم الإسلامى ؟ .

ولست أنكر أن طرح مثل هذه الأسئلة سيصدم البعض . ولا أنكر أنى كنت فى سنوات سابقة معجبًا بطروحات أسلمة العلوم . ولكنى وجدت - وهذا رأى شخصى - أن من الأفضل أن توجه هذه الجهود إلى البحث العلمى نفسه وإلى أخلاقيات العلم التى أصبحت الحاجة إليها ملحة بعد أن وصلنا إلى مرحلة الاستنساخ البشرى وما قد يجره ذلك من عبث بالجينات البشرية ، وما لذلك كله من آثار بعيدة المدى على حياة الجنس البشرى كله .

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

ولست أريد بطرح هذه الأسئلة التقليل من شأن أصحاب هذا الاتجاه . ولا أشك فى إخلاصهم ونواياهم الحسنة . فالخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية . وأنا بطبعى أحترم كل الآراء ، ولكن احترام الرأى شىء والقبول به شىء آخر .

وأود فى هذا المقام أن أشير إلى أن جائزة الملك فيصل التى تمنح سنويًا لعدد من العلماء فى مختلف العلوم على مستوى العالم يكاد ينحصر الفوز بها فى علوم الطب والفيزياء وغيرها فى علماء من الغرب من غير المسلمين ، الأمر الذى يدل على تخلف العلماء المسلمين فى هذه المجالات . فالجائزة إذن تمنح للجدير بها بصرف النظر عن عقيدته أوجنسه أو عرقه ، وهذا أمر يحمد للجائزة وللقائمين عليها .

وهناك نقطة أخرى مهمة أود التطرق إليها تتعلق بالتراث العلمى فى الحضارة الإسلامية . فالعودة إلى هذا التراث وإبرازه لتأكيد الإنجازات الرائعة التى قام بها العلماء المسلمون فى السابق أمر مطلوب ومشكور ، ولكن بشرط أن يكون ذلك فى إطار حدود معينة ، أى فى إطار استعادة الثقة بأنفسنا حتى نستمر فى السير على الدرب . فلسنا أقل فى عقولنا وقدراتنا من السابقين ، ولكننا فى حاجة إلى استعادة هذه الثقة حتى لا نصاب بمركب النقص إزاء الدول التى سبقتنا فى التقدم العلمى والحضارى ، على الرغم من أن هذه الدول كانت تعيش فى ظلام دامس فى العصور الوسطى فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة الإسلامية فى قمة ازدهارها وعطائها .

ومن هنا فإنه لا يجوز لنا أن نضيع الكثير من الوقت والجهد أو الوقوف عند حد اجترار الذكريات أو التغنى بالأمجاد ، فقيمة المرء بما يقدمه من عطاء وليس بما قدمه أسلافه ، أو كما قال الشاعر ابن الوردى :

لا تقل أصلى وفصلى أبدًا إنما أصل الفتى ما قد حصل

ورحم الله جمال الدين الأفغانى . فقد زاره المفكر الإسلامى شكيب أرسلان فى الآستانة حينما كان شبه أسير لدى سلطات الخلافة العثمانية ، ودار الحديث حول ما روى من أن العرب قد عبروا المحيط الأطلنطى قديمًا واكتشفوا القارة الأمريكية قبل أن يكتشفها كرستوفر كولمبوس عام ١٤٩٢ م . وقد رد عليه الأفغانى بقوله :

« إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم »[1] .

ولا شك فى أن التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى قد بدأ عندما قنع المسلمون بما فعله الأجداد ، وعندما شاعت مقولات تنشر اليأس فى النفوس تقول بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأنه لم يترك الأول للآخر شيئًا . وشاع ذلك فى كل مجالات العلوم عقلية أو طبيعية أو حتى دينية . ومن هنا خرجنا نحن المسلمين من حلبة السباق وأصبحنا كما هو الحال اليوم فى مؤخرة الركب .

وهذا ما دفع الشيخ محمد عبده إلى أن يعيب على الفقهاء - على سبيل المثال - دعوتهم الناس إلى تقليدهم والعمل بما جاء فى كتبهم حيث يقول :

« جعل الفقهاء كتبهم هذه ، على علاتها ، أساس الدين . ولم يخجلوا من قولهم : إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة . فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث ، وانحصرت أنظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة » .

وقد جر ذلك وراءه موجات من التقليد الممقوت والتعصب الأعمى ، وتم إهمال العقل ومقرراته والعلم وحقائقه فانتشرت الخرافات والأوهام . وما قصة الشجرة التى زعم أنها تحمل لفظ الجلالة أو صيغة الشهادة ببعيدة عنا . فقد اهتمت بها وسائل الإعلام وانهال الناس من كل صوب على الشجرة لرؤية المعجزة والتبرك بها . وكل هذه خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان .

إننا نتطلع إلى نهضة علمية حقيقية فى عالمنا الإسلامى ، ونرجو أن تكون مراكز البحوث العلمية المنتشرة فى العالم الإسلامى والمؤتمرات العلمية العديدة التى تعقد هنا وهناك بمثابة حافز يدفع إلى التجديد والإبداع حتى تنتقل الأمة من حالة

(١) زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١٠٢ .

التراجع الحضارى التى استمرت عدة قرون إلى ما نرجوه لها جميعًا من التقدم والازدهار ؟ .

ولكن الأمنيات وحدها لا تصنع شيئًا . فتغيير العقليات هو البداية . وتبدل الأحوال لن يسقط علينا من السماء ، فزمن المعجزات قد انتهى منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . والقانون القرآنى هو الحاكم فى هذا الصدد وهو قانون واضح كل الوضوح لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . يقول القرآن الكريم فى ذلك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الرعد : ١١ .

obeikandl.com

٦

فلســفة المقــاومة[1]

عندما يطلق مفهوم المقاومة فى عصرنا الحاضر على المستوى الإعلامى ينصرف الذهن مباشرة إلى مقاومة الشعوب لما تتعرض له من ظلم واضطهاد من ناحية ، كما تعبر فى الوقت نفسه عن الأمل فى المستقبل من ناحية أخرى ، فهى إذن مقاومة للألم ، ماديًا كان هذا الألم أم معنويًا ، من أجل توليد الأمل .

والأمر الجدير بالملاحظة هنا هو أن حروف كلمة ألم فى اللغة العربية هى نفسها حروف كلمة أمل مع تبادل المواقع بين الحرفين الثانى والثالث . وأعتقد أن الارتباط بين الكلمتين ليس فقط فى مادة الكلمة ولكن أيضًا فى التطور الواقعى لانبثاق الأمل من أعماق الألم عن طريق المقاومة . ولعله يمكن القول بأنه لولا الألم - أيًا كان نوعه - لما كان هناك دافع للمقاومة وتطلع مشروع نحو الأمل فى تغيير الواقع .

ومن هنا نرى الشعوب المضطهدة تقاوم الظلم وتستعذب الموت فى سبيل حياة حرة كريمة ، كما تستعذب الأم آلام الوضع فى سبيل رؤية بسمة الأمل على فم وليدها الجديد . وتلك هى سنة الحياة . وما ينطبق على صورة مقاومة الشعوب للاضطهاد والظلم ينطبق أيضًا على مختلف صور المقاومة مادية كانت أم معنوية .

والتحديات التى تواجه الأمم والشعوب على مدى التاريخ تبين لنا أن هناك شعوبًا قاومت وانتصرت ، وشعوبًا أخرى استسلمت وانهزمت . والحضارة ذاتها تعد مقاومة للتخلف . ويفسر « توينبى » الحضارة بأنها رد معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس فى مواجهة تحد معين . وهذا التحدى الذى قد تمثله الطبيعة يختلف فى مستواه، وبالتالى تختلف فعالية الرد من جانب الشعوب بين احتمالات ثلاثة :

---

(١) كلمة افتتاحية للندوة السنوية للجمعية الفلسفية المصرية عام ٢٠٠٦ تحت عنوان (فلسفة المقاومة) .

فإما أن تقوم الشعوب المعنية - عن طريق المقاومة - بوثبة إلى الأمام ، وإما أن تصاب بالتوقف والجمود ، وإما أن يلفها الفناء بردائه .

وهذا يعنى أن المقاومة ضرورة حياتية ، فالمقاومة عصب الحياة بجميع أبعادها ابتداء من مقاومة الجسم لكل ما يحيط به من أمراض ، ومرورًا بمقاومة التحديات الطبيعية والكوارث البيئية لاستمرار الحياة وبناء الحضارة حتى تنعم الشعوب فى ظلها بالأمن والاستقرار والسلام .

ولكن السؤال الجوهرى هنا هو : ما هى القاعدة التى تستند إليها فلسفة المقاومة ؟ ودون الدخول فى مناقشات لا داعى لها حول تعريف مفهوم « فلسفة المقاومة » لدى بعض الاتجاهات الفلسفية أو السياسية المعاصرة ، نرى أنه لا يوجد هناك أساس فلسفى للمقاومة غير العقل الإنسانى . بل يمكن القول إن المقاومة تفقد مصداقيتها ومبرراتها إذا تخلت عن العقل . ومن هنا يمكن القول : إن تفعيل دور العقل يعد أفضل سبيل للمقاومة على جميع الأصعدة . وكل صور المقاومة تعتمد على العقل الإنسانى . فمقاومة الاحتلال والاضطهاد والظلم تحتاج إلى العقل ليخطط ويعد العدة حتى يمكن أن تصل المقاومة إلى تحقيق الهدف المنشود ، وهكذا بقية صور المقاومة . ومن بينها - على سبيل المثال لا الحصر - مقاومة الخرافات والانحرافات والسلبيات فى المجتمع ومقاومة الجهل والفقر والمرض ومقاومة الفساد والمفسدين ، وبصفة عامة مقاومة التخلف بجميع صوره وأشكاله . وقد تكون المقاومة بالفكر أو بالعلم أو بالسلاح أو بالدين .

والدين نفسه قد أمر بمقاومة المنكر بالفعل أو بالقول أو بالقلب . وهذا أضعف الإيمان ، كما جاء فى الحديث النبوى المشهور[1] ، كما أمر القرآن الكريم برد العدوان فى مختلف صوره وأشكاله .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، ونصه : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولكن العقل سيظل هو الذى يحدد لنا من نقاوم ؟ أو ماذا نقاوم ؟ ومتى وأين نقاوم وما هو الأسلوب الأمثل للمقاومة ؟ ومتى نتوقف ومتى نواصل المقاومة ؟ كما أن العقل أيضًا هو الذى يقوم بتقييم نتائج المقاومة .

ومن الطبيعى أن تبدأ المقاومة من داخل النفس الإنسانية . ولعل ذلك يكون أوضح ما يكون فى التصوف الذى يعتمد على مقاومة إغراءات النفس ليصل بصاحبه إلى مرحلة « التخلية » التى تهيئ النفس لمرحلة « التحلية » كما يقول المتصوفة.إن المقاومة لها - بطبيعة الحال - وسائل متعددة ، والعقل هو الذى يضبط إيقاع المقاومة ويصحح لها مسارها ويصل بها إلى الهدف المنشود .

وليست هناك مقاومة لذات المقاومة دون أن يكون لها هدف معقول يبرر مشروعيتها ، وإلا ستكون مقاومة عبثية .

وقد كانت الفلسفة دائمًا ولا تزال وستظل أبرز صور المقاومة ، تقاوم الجهل والسطحية وضيق الأفق والتعصب والتطرف لتضع مكان ذلك العلم والتعمق وسعة الأفق والتسامح والاعتدال .

وهذه كلها عناصر ضرورية لمنع الظلم والاضطهاد والعدوان على حقوق الإنسان ومنع الطغيان فى شتى صوره وأشكاله .وهدف المقاومة هو سلام النفس وسلام المجتمع وسلام العالم حتى يتحقق حلم الفلاسفة فى كل العصور وهو الوصول بالبشرية إلى النموذج الإنسانى المثالى . وإذا كان تحقيق مثل هذا النموذج يعد أمرًا صعب المنال فعلى الأقل يكفى الاقتراب منه لتغليب الأمل وتشجيع أجيال المستقبل على السير فى نفس الطريق لتحقيق ما لم تحققه الأجيال السابقة .

* * *

obeikandl.com

قيمة الوقت فى حياتنا[1]

يشتمل تراثنا العربى القديم على العديد من الأمثال الشهيرة المعبرة عن قيمة الوقت والتى لا نزال نرددها حتى اليوم . ومنها على سبيل المثال لا الحصر « الوقت من ذهب » ، و« الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ».

وتأكيدًا لأهمية الوقت فى حياة الناس أفرادًا وجماعات يبين لنا النبى عليه الصلاة والسلام أن الوقت يعد إحدى المسئوليات الأساسية التى سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة ، وذلك فى قوله : « **لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه . . . إلخ** »[2] وعمر الإنسان هو مجموع أوقاته التى عاشها فى هذه الحياة . فهو مسئول عن كل لحظة من لحظات هذا العمر : ماذا عمل فيها ، وهل استفاد منها وأفاد غيره ومجتمعه بهذه الأوقات أم لا ؟ .

ويعبر أمير الشعراء أحمد شوقى تعبيرًا صادقًا عن وجود عنصر مهم فى داخل كل منا يشعرنا بصفة دائمة بقيمة الوقت وأهميته البالغة فى حياتنا فيقول :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

ومن كل ذلك ، وغيره كثير ، يتضح لنا مدى الأهمية الكبيرة لقيمة الوقت فى تراثنا القديم والحديث . ويعبر ذلك كله عن الحرص الشديد على ضرورة استغلال الوقت فى أعمال مفيدة للشخص أو لأسرته أو لمجتمعه . وبذلك تنهض الأمم وتتقدم الشعوب . فكل فرد يبنى ويقدم ما يستطيع تقديمه . **وكل ميسر لما خلق له**[3] - كما جاء فى الحديث الشريف - .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٧

(٢) رواه الدارمى فى سننه .

(٣) جزء من حديث رواه البخارى فى صحيحه

ولا يجوز لأى فرد أن يتقاعس عن تقديم ما يتيسر له تقديمه بحجة أنه لا يملك ما يقدمه للناس . فالكلمة قد يكون لها أثر كبير فى دفع الآخرين إلى العمل والإنتاج ، بل حتى مجرد الابتسامة قد تدخل السرور والبشر على الآخرين وتحفزهم إلى مزيد من العطاء . ومن هنا كان قول النبى صلى الله عليه وسلم : « **تبسمك فى وجه أخيك صدقة** »(١) وقوله: « **لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »(٢) أى بوجه بشوش . فالأمر الذى لا شك فيه أن الحالة النفسية للإنسان لها تأثيرها الكبير على سلوكه فى حياته سلبًا أو إيجابًا . وينعكس ذلك بطبيعة الحال على حسن أو إساءة استخدامه للوقت .

ولا يختلف العقلاء فيما بينهم على أهمية الوقت وحسن استغلاله فى دفع عجلة الحياة وتطويرها . ولكن السؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو : هل ما نقتنع به نظريًا نطبقه بالفعل عمليًا أم أن هناك فجوة كبيرة بين الفكر والفعل ؟ .

إن واقع الحال يبين لنا أن هناك فجوة تفصل بين الفكر والعمل . فكثير من الأمور التى نقتنع بها ونؤمن بجدواها لا تخرج فى أغلب الأحيان عن دائرة النظر إلى دائرة العمل . فكلنا يؤمن بأن الوقت مسئولية وأن كل دقيقة تمر علينا ما هى إلا اقتطاع جزء من عمرنا المحدود فى هذه الحياة ، وأنها إذا ذهبت فلن تعود أبدًا .

وعلى الرغم من ذلك فإن الكثيرين يبددون أوقاتهم بكل سهولة . ومن بيننا أناس تخصصوا فى تضييع الوقت ، أو بتعبير أدق : فى قتل الوقت ، كما لو أن أوقاتنا عدو لابد أن نقتله ونتخلص منه . ومن ناحية أخرى فإننا لا نفرق كثيرًا بين أوقات الجد وأوقات اللهو ، بل نخلط بينهما ، الأمر الذى يجعل حياتنا تسير دون نظام يحكم سيرها ويضبط حركتها . وهكذا لم يعد الوقت لدى الكثيرين من ذهب يحرصون عليه - كما يقول المثل القديم - ، وإنما أصبح من تراب ، بل أرخص من التراب .

---

(١) رواه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

ورحم الله العالم الدمشقى المعروف جمال الدين القاسمى - الذى كان معاصرًا للشيخ محمد عبده - فعندما كان هذا العالم يمر فى طريقه المعتاد يوميًا فى موطنه كان يرى المقاهى مكتظة بالجموع الغفيرة من الناس الذين يضيعون أوقاتهم فيما لا طائل من ورائه ، فيعبر عن حسرته على عدم الوعى بقيمة الوقت قائلاً : كم أتمنى أن يكون الوقت مما يباع لأشترى من هؤلاء جميعًا أوقاتهم لأنفقها فيما يفيد .

صحيح أن حياة الناس فى الماضى كانت تسير ببطء ورتابة ، ولم يكن لديهم من وسائل الترفيه إلا القليل بالقياس إلى ما يشهده عالمنا المعاصر . ومن هنا يمكن أن يقال إنه كانت لديهم مساحة كبيرة من الوقت ، ولكن الصحيح أيضًا أن الإنجازات الرائعة والطفرة التكنولوجية الهائلة فى عالمنا المعاصر ، والتى تحيط بنا الآن من كل جانب ، قد وفرت لنا الكثير من الوقت والجهد . والفرق بيننا وبين أسلافنا ، أو حتى معاصرينا فى الأمم المتقدمة ، هو الوعى بقيمة الوقت واستغلاله الاستغلال الأمثل .

وعلى الرغم من أن العصر الحاضر قد هيأ لنا - كما أشرنا - وسائل عديدة اختصرت الزمان والمكان ووفرت لنا المزيد من الوقت الذى يمكن استغلاله فى الأعمال المفيدة ، فإن غالبية الناس فى عالمنا الإسلامى لا يزالون يفتقدون الوعى الحقيقى بقيمة الوقت ، هذا الوعى الذى من شأنه أن يدفع المرء إلى العمل المنتج ويحفزه إلى الإبداع . وفى المقابل فإن عدم الوعى بالوقت يشد المرء إلى التخلف والكسل العقلى والعضلى معًا ، ومن هنا يمكن القول بأن الفرق بين إنسان متحضر وإنسان غير متحضر هو الإحساس بالوقت . فالوعى بقيمة الوقت مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحضارة والتحضر .

ومن هنا ذهب المفكر الإسلامى الراحل مالك بن نبى الى جعل الحضارة نتيجة لثلاثة عناصر أساسية هى : التراب (المادة) + الوقت + الإنسان . وبدون أى عنصر من هذه العناصر لا تقوم حضارة . فالإنسان هو صانع الحضارة والمادة ضرورية لصنع الحضارة ، والوقت هو الوعاء لصنع الحضارة .

وإذا كان الوقت هو الوعاء الذى يمارس فيه الإنسان نشاطه فى الحياة فإن ذلك يعنى ارتباط قيمة الوقت بقيمة العمل . فالوقت بلا عمل فراغ ، والعمل لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هناك وقت لإنجازه . والفراغ فى حد ذاته يمكن أن يكون نعمة ، كما يمكن أن يكون نقمة . ومن أجل ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** »[1] . فالذى لا يستعملهما فيما ينبغى وفيما خلقا من أجله فقد ظلم نفسه وبذلك تنقلب النعمة إلى نقمة .

وقد أعطى الله الإنسان العقل ليميز به الخير من الشر ، والنافع من الضار . وهذا يعنى أن عليه أن يتحمل مسئوليته الإنسانية وأن يبذل أقصى الجهد لوضع كل شىء فى إطاره الصحيح . ومسئولية الإنسان الحضارية فى هذا الوجود تحتم عليه أن يكون أمينًا فى تحمل هذه المسئولية ليحقق ذاته ويؤكد هويته الإنسانية من ناحية ، وليكون جديرًا فى الوقت نفسه بشرف خلافته لله فى الأرض من أجل إعمارها بالخير فى جميع المجالات من ناحية أخرى . وهذا أمر لن يتحقق إلا بالتوظيف الأمثل لقيمة الوقت .

ومن هنا اهتم الدين بقيمة الوقت ونبه إليها ، وحض على الالتزام بها وحسن التصرف فيها . وقد أقسم الله بالوقت فى العديد من آيات القرآن الكريم ليبين لنا مدى الأهمية البالغة لهذه القيمة فى حياة الإنسان . وقد جاء القسم فى هذه الآيات بالفجر وبالضحى وبالعصر وبالليل وبالنهار ، وكلها تمثل أجزاء من الوقت . والله لا يقسم بشىء دون أن تكون هناك حكمة بالغة وراء ذلك يراد تعليمها للناس .

فإذا أقسم الله بالوقت . فالزمن أو الوقت مخلوق لله ، ونحن أيضًا مخلوقون لله . ومن هنا فنحن مرتبطون ارتباطًا لا ينفصم بالزمن . وتفكيرنا يدور فى إطار الزمن الذى لا يستطيع إنسان أن يتجاوزه . والزمن ينقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

والإنسان العاقل يتذكر الماضى ليعتبر بما جرى فيه ، ويعيش الحاضر مستفيدًا من دروس الماضى حتى لا يكرر أخطاءه أو أخطاء السابقين ، ويخطط للمستقبل بهدف أن يكون أفضل من الماضى والحاضر معًا.

إن قضية الوقت قضية حياتية مصيرية . ومن هنا فنحن فى أشد الحاجة إلى عودة الوعى بقيمة الوقت وأهميته البالغة فى حياة الناس أفرادًا وجماعات ، حتى ننهض بأمتنا ونتقدم بمجتمعاتنا . فنحن نعيش اليوم فى عصر السباقات العالمية . ولم يعد لدينا وقت لإضاعته فيما لا يفيد ، وإلا فإن الزمن سيتجاوزنا ويسقطنا من حسابه، والتاريخ لن يرحمنا ، وهذا مصير لا يرضاه عاقل لنفسه أو لأمته ، ولا يتفق مع ما ورثناه من رصيد حضارى ضخم لا يزال شاهدًا على ما قدمه أسلافنا من عطاء غير محدود فى جميع المجالات .

* * *